إشكالية الدال والذات عند أوديب قراءة من منظور التحليل النفسي اللاكاني

حسام خلوف[1]، أ. د. غسان السيد[2]

1 طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة دمشق.

2 أستاذ دكتور، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة دمشق.

الملخص:

كلُّ نظرياتِ التحليلِ النفسيّ تبدأُ من سوفوكليس، فتتحددُ مكانتها بوساطة ما تقدِّمُهُ من تفسير لِمُرَكَّبِ أوديب. وإذا كان فرويد قد قرأه في سياق البيولوجيا والجنس، فإن لاكان قرأه بوصفه إشكالية لغوية؛ فأوديب ليس سوى ضحية الجهل باسمه الحقيقي.

الدراسة تحاول مناقشة العقدة الأوديبية بوصفها عقدة لغوية في المقام الأول، وأنها نشأت من خطأ نحوي؛ حيثُ جرى إعراب الذات بوساطة أب غير حقيقي، ومن ثمَّ حاز هُوِيّة زائفة؛ منعت تحديد شبكة القرابة على نحو صحيح، يطابق الواقع الحقيقي، ما خلقَ فوضى في مواقع العناصر، فغدا الأب ابناً وزوجاً للأم.

ووقفَ الباحثُ على دلالة العقوبة التي اختارها أوديب لنفسه، وبوساطة مقولات النظام المرآوي الخيالي عند لاكان، بَيَّنَ أنَّ فقءَ العين، يمثِّلُ تحطيماً لبنية الخيالي، وترميزاً عميقاً للطريقة المضللة التي ينظر بها الانسان نحو نفسه، ونحو العالم الخارجي. فنحن لا نلمح كينونتنا إلا بالمرآة، التي تمنحنا معرفة تصورية زائفة بشأن ذواتنا، بخلاف الحقيقة التي عليها كينونتنا في العالم الخارجي.

الكلمات المفتاحية: الدال، الخيالي، المرآوي، الرمزي، اللاكانية، النظام، البنية، النسق، معجم القرابة، سفاح المحارم، عقدة أوديب.

تاريخ الايداع: 2021/10/11

تاريخ القبول: 2022/2/8

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص
CC BY-NC-SA 04

The Oedipus As A Linguistic ProblemAccording To The Lacanian Psychoanalysis

Husam khallouf[3] , Prof. Ghassan Al Sayed[4]

3 Phd Student, Department of Arabic Language, , College of Arts and Humanities, Damascus University.

husam2.khallouf@damascusuniversity.edu.sy

4 Professor, Department of Arabic Language, , College of Arts and Humanities, Damascus University.

Abstract:

This paper examines the Oedipus tragedy, according to Jacques Lacan. Freud read Oedipus according to gender, while Lacan read Oedipus as a linguistic problem. Oedipus is a victim because he does not know his real name.

Oedipus is a false identity, and an unreal father, and accordingly the family structure was not set in accordance with reality. And The child does not desire his mother's body because of sex, but rather wants to return to the field of the real, to the womb, to fullness.

Oedipus put out his eyes, and the researcher wondered, why Oedipus did not kill himself. The reason is clear, that he wants to destroy the imaginary system, and break the mirror, which seduced him.

Keywords: (The Imaginary order, The Symbolic order, Order, Structure, The Mirror stage, Lacanian,signifier, Oedipus complex)

Received: 11/10/2021
Accepted: 8/2/2022

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a

CC BY- NC-SA

المقدمة:

يُمَثِّلُ النص الأدبي بما يختزنه من خيالاتٍ وأساطيرَ مَعِينَاً، ينهلُ منه المحللون النفسيون، فيستلهمون منه قوانين البنية الإنسانية. هكذا فعل فرويد[1] Freud، حين استقى من أدب سوفوكليس المفهوم الأوديبي، ومثله فعل جاك لاكان[2] Jac Lacan إذ استعان بقصة إدغار بو: "الرسالة المسروقة" ليبرهن سيادة الدال على المدلول والذات. وقد اتفقت الحضارات الإنسانية بمجموعها على تحريم زواج المحارم، وأصبح تجنب السفاح تمثيلاً لخضوع الغريزة أمام القانون الثقافي، وقهراً للطبيعة ولبدائية البشر الأولى.

لكنَّ تأويل فرويد للنماذج الأدبية، واستخلاصهُ مفهومَ العقدة الأوديبية، أخلَّ بتلك المسلمة، (فأضحى العمل الأدبي متنفساً لمكبوت الأديب، ونتاجاً لطاقة الليبدو)[3]. ومع هذا الإغراق في البيولوجيا، ساءت سمعة التحليل النفسي، فظهر جاك لاكان بنظرية متماسكة، أعتقت التحليل النفسي من إسار الجسد، ونقلته إلى فضاء اللغة الدّالّة.

أما العينة المدروسة فهي قصة أوديب من منظور أندريه جيد: "أوديب وثيسيوس من أبطال الأساطير اليونانية"، وهي مسرحية ترجمها إلى العربية طه حسين؛ إذ يتضحُ فيها تصدُّع نسقِ القرابة جلياً. ومع أنّ كمَّاً كبيراً من الدراسات أُنْجِزَ في هذا الموضوع، إلّا أنّ البحث ينهض ليجيب عن أسئلة، تخلَّقت بفعل رؤية تستند إلى تقنيات التحليل اللاكاني. ويصوغُ الباحثُ ملامحَ هذه الإشكالية بوساطة التساؤلات التالية:

- كيف تتجلى العقدة الأوديبية في حقل الرمزي بوصفها عقدة لغوية؟.
- ماذا عن تصدُّع نسقِ المحارم، على مستوى الإخوة: أبناء أوديب؟.
- ما دلالة فقء أوديب عينيه، ولماذا لم يقتل نفسه، مثلاً؟.

هذه الأسئلة تمثل مسوّغاً منطقياً لإعادة النظر في الموضوع الأوديبي، وتُنْبِئُ عن أهمية هذا النوع من الأبحاث، خاصةً أنّ المكتبة العربية تفتقد إلى هذا النوع من الدراسات. فالجِدّة المنهجية، أسفرت عن نتائج جديدة؛ مثلَ: دلالة فقء العين على التضليل الخيالي، ودلالة خطأ الهوية على تصدعات نسق المحارم. فما الجديد في الموضوع الأوديبي؟.

أولاً: مفهوم النظام الرمزي عند لاكان

يرى لاكان[4] أنَّ بنى المجتمع بنى رمزية، وما دامت الرمزية تحيلُ على اللغة، فلا بدّ من النظر إلى الأبنية الاجتماعية، وتقسيماتها، بوصفها أنظمة لغوية. وإذا كانت البنية تُعرَّف على أنها" نظام أو نسق"[5]، فإنه يمكن القول بأنَّ النظام الرمزي هو نسق لغوي، يتكون من أسماء الأعلام، التي تمثِّلُ الذوات. فالطفل لا يستطيع ولوج البنية بكينونته، بل بوساطة التسمية الأبوية، التي تسمحُ بتصييره رمزاً. وبذلك، (تعْبُرُ الذات إلى النسق، وتتخذ موقعها فيه؛ ذكر/أنثى، ابن/ابنة، فتصير قابلة للتبادل عبر اللغة)[6].

إنّ موقع الذات في النسق اللغوي، هو تعبير مجازي، يُراد به موقع الدال، الذي يضطلع بتمثيل تلك الذات. فعن هذا الاسم يصدر معنى الإنسان، ويتحدد مكانه من باقي أفراد النسق. أي إن الذات توجد بدءاً من لحظة التسمية. وبالدال الذي تتكنى به يتحدد موقعها من بقية الذوات، فتأخذ معناها من اختلاف دالها عن الدوال الأخرى.

---

1 – سيغموند فرويد: (1856–1939م): طبيب أعصاب نمساوي، اكتشف اللاوعي، وأرسى جذور التحليل النفسي.

2 – جاك لاكان: (1901–1980م)، محلل نفسي فرنسي. وتُنسب إليه اللاكانية، أو المنهج البنيوي النفسي.

3– إبراهيم، السيّد: **المتخيل الثقافي ونظرية التحليل النفسي المعاصر**، ط1، مركزالحضارة العربية، مصر، 2005م. ص9.

4 – **انظر:** إيفانز، ديلان: **قاموس لاكان التمهيدي في التحليل النفسي**، ترجمة: محمد أحمد محمود خطاب، ط1، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 2018م، ص369.

5 – عزام، محمد: **تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة، دراسة في نقد النقد**، د. ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003م. ص20.

6 –سلدن، رامان: **النظرية الأدبية المعاصرة**. ترجمة: جابر عصفور. دار قباء، القاهرة. (د.ط)، 1998م، ص128.

ويختلف لاكان مع سوسور بشأن مفهوم اللغة، من حيثُ آلية إنتاج المعنى. (فاللغة عند سوسور منظومة علامات، تتحصل المعاني فيها، بوساطة الاتحاد بين دال ومدلول محدد)[1]، في حين يرى لاكان[2] أن اللغة تُقرأ وفق علاقة الدال بدال آخر. وهو بذلك يرفض المعاني المعجمية المسبقة، ويذهب إلى أنّ المعنى لا ينتج عن تعالق الدال بالمدلول، بل عن تماس الدال بدال آخر.

فمثلاً، إذا قلنا بأنّ الاسم الشخصي، هو دالّ يشير إلى مدلول بعينه، يتمثل بـ: الذات، فهذا افتراض خاطئ عند لاكان؛ ذلك أنّ معنى الذات لا يصدرُ عن تماسها بالاسم، بل عن علاقة دالها بالدوال الأخرى المكوِّنة للنسق. فبوساطة التماس بين المفردتين: (أب، وابن)، وإمكان التبادلية بينهما، تتحصل معاني الأبوة والبنوة.

(ويتسم الدال بأولويته على الذات، فهو يُنشئها ويتحكم بمصيرها، وهي بهذا المعنى تكون مرتهنة له بالكامل)[3]. إذ تتجلى أولوية الدال من جهة أنّ الأسماء تنوب عن المسميات، فحين يحضر الدال تتوارى الذات. لكن، في المقابل، هذا الدال الذي قد يتمثَّل في الاسم الشخصي، أو اسم الجماعة، أو سائر مفردات الهوية، يقوم بتعريف الذات في مواجهة الآخرين، "فالذات هي ما يمثله الدال بالنسبة إلى دال آخر"[4]، أي إنَّ الذات لا تعني شيئاً، ما لم يجرِ دمجها بالدال، فتتخذ موقعاً، تتخاطب بوساطته مع الآخر.

"والدال يتكون في موضع الآخر الكبير"[5]، أي في النظام الرمزي، عبر عملية التسمية الأبوية. (ويصف لاكان الرمزي بأنه نظام سابق على وجود الذات، وانَّ هذه الأسبقية تتجلى بأوضح صورها، حين يشير الطفل إلى نفسه باسمه، قبل أن يشير إليها بالضمير أنا)[6]. أي إننا نعرّف أنفسنا بالجماعة الرمزية قبل أن نعرفها ذاتياً. فالاسم الشخصي لا يشير إلى الذاتية، بقدر ما يشير إلى المجموع والأصول.

إنّ أهم ما يميز الرمزي من الأنظمة اللاكانية الأخرى، هو مفردة القانون، (فالرمزي هو حقل القانون، وتحديداً قانون اسم الأب. إذ يُعَدُّ الأب ممثلاً شرعياً حصرياً للقانون. وعليه اضطلع الأب –من حيث هو طرف ثالث– بمهمة فصل العلاقة الثنائية الخيالية بين الطفل والأم، فيحل العقدة الأوديبية وينقل الطفل إلى ضفة اللغة والثقافة)[7]. وبهذا المعنى يؤدي الأب وظيفة، تتمثَّل في إخضاع الرغبات الخيالية للقانون اللغوي.

ومن هنا أصبح "اسم الأب معادلاً لِـ لاء الأب"[8]، حيثُ تقرأ أداة النفي الأبوية في اللاكانية، بوصفها مفردة حظر وتحريم، وهذا الحظر مكرَّس قبل كل شيء لمنع السفاح.

إنَّ قانون اسم الأب هو ما يجعل بعض النساء محرمات، ولذلك (عَدَّ لاكان مشكلة أوديب مشكلة لغوية، فخطيئته تأسست على جهله باسمه الحقيقي، فكانت النتيجة أنه قتل الأب، ووقع في السفاح)[9]. وهذا يعني أنّ الهوية الأبوية، التي تختزن موقع الذات ومعناها، هي الحرز الذي يحمي نسق القرابة.

وإذا كان النظام الرمزي هو مفردات القانون، واللغة، والوطن، والجماعة، والبيت، الذي يحتضن الكينونة، فإنّ أوديب المُعَرَّف في هذا النظام على نحو خاطئ، وجد نفسه فاقداً التضامّ البنيوي، ما جعله يتوه عن دالِّه، ويسقط في جحيم اللغة.

---

1 – سوسور، فرديناند: **علم اللغة العام**. ترجمة يوئيل يوسف عزيز، مراجعة مالك يوسف المطلبي،(د.ط)، دار آفاق عربية، بغداد، 1985م. 132.

2 **- انظر**: كليمان، كاترين: **جاك لاكان**، مجلة بيت الحكمة، العدد الثامن، المغرب، نوفمبر 1988م. ص20.

3 – حبّ الله، عدنان: **التحليل النفسي للرجولة والأنوثة.. من فرويد إلى لاكان**، ط1، دارالفارابي، بيروت، 2004، ص68، 73.

4 – المرجع نفسه: ص207.

5 – المرجع نفسه: 73.

6– سلدن، رامان: **النظرية الادبية المعاصرة**، ص128. و بريتون، سيليا: **مِن الشكلانية إلى ما بعد البنيوية**، ترجمة: جمال الجزيري، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2006م. ص328.

7 – عسكر، عبد الله: **مدخل إلى التحليل النفسي اللاكاني**، ط2، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 91،2001–92.

8 – دور، جويل: **المنهج الإكلينيكي عند لاكان**، ترجمة: محمد أحمد محمد خطّاب، مروة فتحي محمد سلامة، ط1 ، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 2015م، ص123.

9 – إبراهيم، السيد: **المتخيل الثقافي ونظرية التحليل النفسي المعاصر**، ص 32–33.

- **أوديب هُوِيَّة مُزيفة:**

يظهرُ خواء أوديب وفقدانه الانتماء جلياً، وهو يخاطب كريون: " لماذا عليَّ أن أخترع كل شيء... أن أبتكر الوطن، وأن أبتكر الأجداد... وما الذي يعنيني أن أكون من أبناء اليونان."[1]. إنّ مفردات: (الوطن، الأجداد، أبناء اليونان)، تُمثِّلُ أسماءَ بُنَى النظام الرمزي، الذي حُرِمَ أوديب الدخول إليه، على نحو صحيح. فأصبح مجرد لقيط:" أنا لقيط لا يُعْرَف له أصل، ولا يحمل ما يثبتُ شخصيته."[2]. فهو يفتقد الدال الذي يمنحُ المعنى، ويثبتُ الانتماء إلى الموقع الرمزي.

وبعد أن نشأ أوديب، وهو يخالُ أنه كينونة مُعرَّفة، كان قدره أنْ يستيقظ على عرائه اللغوي، فاكتشف أنه نكرة: "إنما انا ابن سبيل، لا اسم له"[3]. وهذه جريرة لايوس[4]، الذي تخلى عن موقعه، بوصفه ممثلاً للقانون، فرفض الاعتراف بأوديب خشية تحقق النبوءة. فما كانت العاقبة؟.

لقد امتنع الراعي عن قتل الطفل إشفاقاً، فأسلمه إلى يد بوليب ملك كورنت[5]، الذي احتلّ موقع الأب الحقيقي، فقام بتسميته، مانحاً إياه هُوِيّة مزيفة. وهي هُوِيّةٌ أخفقت في تعيين معجم القرابة على نحو صحيح، فحدثت فوضى في المواقع، داخل بنية الرمزي، فكان أنْ تصدَّع نسق المحارم.

تصدع نحو القرابة:

"إنّ سفاح المحارم يقلبُ قائمة النسب رأساً على عقب"[6]، وخطيئة أوديب إنما تصدر عن اسمه الزائف، وجهله باسمه الحقيقي، فأصبح بَدَهَيَاً أن يسقط نحو القرابة. يقول: "بفضل جهلي بهويتي تزوجت أمي وا حسرتاه، وا حسرتاه"[7]. واعترافٌ كهذا، من شأنه أن يعكس فوضى مواقع الذوات على المستوى الرمزي.

(إنَّ أهم ما تمتاز به قصة أوديب هو تضمنها لتمثيلات اجتماعية بنيوية، من نحو علاقة الحاكم بالشعب، والسيد بالعبد، فضلاً على تحذيرها من خطورة خرق نسق المحارم، وعواقبه الكارثية على المجتمعات)[8]. ولما كانت هذه التمثيلات قابلة للتحقق في كل زمان ومكان، أضحت الفكرة الأوديبية، قابلة للقراءات المتجددة.

إنَّ عرض سوفوكليس لفكرة تصدع نسق المحارم، ليس ترفاً فكرياً، بل يعكس وعي الكاتب بأهمية قانون تحريم السفاح، وكيف أنَّ عاقبة المساس به لا تتوقف عند الجاني، بل تتجاوزه إلى خراب المجتمع برمته. وهو ما حدثَ هنا فعلاً.

فحالما اعتلى أوديب، ملكاً على رأس بنية الرمزي، واضطلع بوظيفة فرض قانون اسم الأب، اختلَّ النظام برمته؛ فأضحت جوكاستا أماً له وزوجةً، وصار هو أباً لأبنائها، وأخاً لهم في الوقت نفسه. يقول كريون مخاطباً إياه: " أتكون أختي أمك، أتكون أنت صهري، أم ابن أختي"[9]. ويظهر أثر التسمية الخاطئة في تراتبية المواقع الرمزية جلياً، حين يقول أوديب:" هذه أنتيجون التي أمسُّ شعرها الآن، ابنتي وأختي في وقت واحد"[10]. إنّ عدم انضباط مواقع العناصر التي تكوّن نسق المحارم، ينشأ من انتظام النسق وفقَ نحو فاسد؛ فالقانون البنيوي مقصورٌ على قانون الأب الرمزي، ولأنَّ أوديب هو خطأ لغوي، صار فساد النسق الرمزي حتمياً.

وعليه، حلّت لعنةُ الطاعون على المدينة، نتيجة لغضب الأب الرمزي الأعلى، المتمثل بالإله. وراحت رغبة الذوات تتعاظم في خرق معجم المحارم؛ وهذا جليٌّ في الحوارات المنعقدة بين أبناء أوديب:

---

1 – جيد، أندريه: **أوديب وثيسيوس، من أبطال الأساطير اليونانية**، ترجمة: طه حسين، د. ط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة. د: ط، 2012م، ص 43

2 – المرجع نفسه: ص 31.

3 – المرجع نفسه: ص 62.

4 – لايوس: ملك طيبة، ووالد أوديب الحقيقي.

5 – بوليب هو ملك كورنت، الذي تربى أوديب في كنفه.

6 – إبراهيم، السيد: **المتخيل الثقافي والتحليل النفسي المعاصر**، ص 32.

7 – جيد، أندريه: **أوديب وثيسيوس، من أبطال الأساطير اليونانية**، ص 57.

8 – أبو عسلي، برهان: **أوديب ملكاً لسوفوكليس، قراءة جديدة**، مجلة جامعة دمشق للعلوم والآداب الإنسانية، المجلد 30، العدد 1–2، 2014، ص67.

9 – جيد، أندريه: **أوديب وثيسيوس، من أبطال الأساطير اليونانية**، ص 57.

10 – المرجع نفسه: ص 61.

"بولينيس :أي أنتيجون :اسمعي لي ... ولا يأخذك الخجل من سؤالي ... أمِنَ المحرَّم أن يتزوج المرء أخته؟
أنتيجون : نعم، لا شك في ذلك؛ إنه مُحَرَّمٌ أَمَام النَّاس وأمام الإله . لِمَ تسألني...
بولينيس : لأني لو استطعت أن أتخذك لي زوجًا لأسلمتك قيادي ...
أنتيجون : كيف تقترف الشر وترجو أن تصل به إلى الخير ؟!
بولينيس:الخير والشر ...لا يردّد فمك إلا هاتين الكلمتين."[1].

يعكس الحوار السابق تصدّع بنية القانون الرمزي عند أبناء أوديب، وهذا التصدع الذي يتمثَّل في رغبة بولينيس بجسد أنتيجون، ينشأ من هوية الأب الفاسدة. وبسبب اضطراب النحو الأبوي، راح بولينيس يتكئ على قانون الزواج، لتبرير رغبته الخيالية الآثمة. ومع أنه لا يمكن خلط الخيالي بالرمزي، إلّا أنَّ الابن يفعل ذلك، استناداً إلى أنّ القانون المؤسس للنسق خاطئ.

أما رد أنتيجون، فيُبنى على استحضار قانون رمزي أعلى، قانون الرب. فحين أخفق قانون الأب في صون نسق المحارم، حضر قانون الأب الأعلى. وربما يكون هذا الأمر هو الدافع اللاواعي الذي يحرض رغبة الفتاة على الرهبنة. إذ إنّ عناصر القرابة في البنية الأوديبية، تحتكم إلى قانون فاسد، ومن ثم كان منطقياً أنْ تصير أنتيجون شاذة من وجهة نظر شقيقتها إسمين:

"إن بين أَنْتِيجُون وبيني اختلافًا عظيمًا... حَتَّى إننا لنَخْتَصم في غير انقطاع، فهي تلومني في كل ما أُحبُّ وتزعم لي أنَّه مَحْظُور، حتى انتهى بي الأمر إلى أني لا أجرؤ أمامها على الضحك . وأنا أعلم أنها أكبر مني سنًّا، ولكني أكاد أعتقد أنها لم تكن صبية قط"[2].

إنَّ أنتيجون تمارس فعل المراقبة والحظر بحق عناصر النسق، ومثلما أنّ قانون الأب القويم يقول: لا لسفاح القربى، كذلك لأنتيجون لاؤها الخاصة، التي تستمدها من مثلها الأعلى. وهذا المثل لا يتجسد في الأب أوديب، بل في الرب الذي ستصير خادمته. وهي بهذا إنما تسدُّ الفراغ، الذي خلَّفه شغور موقع الأب الرمزي. فأوديب يتوسط عائلته ولا يرأسها على الحقيقة؛ فهو أخ لأبنائه أكثرَ منه أباً. وعموماً الحظر على السفاح لا يأتي من الأب الواقعي، بقدر ما يصدرُ من موقع الأب الرمزي. لذلك نجد أنّ حضور أوديب لتقويم أحاديث أبنائه بشأن الرغبة في الزواج بالمحارم، يفتقد إلى الحزم والفاعلية؛ فمثلاً، يجري هذا الحديث بين أبنائه، على مسمع منه:

"إتيكوكل: أود لو أخالف المألوف..
فأنا الآن أبحثُ في الكتب عن جمل تبيح لي أن أتخذ ياسمين خليلة
بولينيس: إنْ وجدت هذه الجملة فأظهرني عليها."[3]

في ظل غياب القانون الأبوي، نرى إتيكوكل، وقد اجتاحته رغبة عارمة بانتهاك نسق المحارم. وداخل الكتب، التي تعادلُ سجلات القانون الرمزي، يفتش عن ثغرةٍ، أو جملة خاطئة، تجيزُ له كسر الحظر المفروض على نسق المحارم. وبعد أن سمع أوديب هذا الحوار، ما كانت ردة فعله، لقد خاطب ابنيه بالقول: "احترما أختيكما"[4]. وكان جديراً به أنْ يقول: احترما القانون الأبوي. لكنَّ موقعه الخاطئ جعل قانونه غير فاعل. ومن ثمَّ كان طبيعياً أن تتفلت البنية، وهذا بالضبط معنى أن سفاح المحارم يقلب قائمة النسب، ومواقع الذوات، رأسا على عقب.

1 – جيد، أندريه: **أوديب وثيسيوس، من أبطال الأساطير اليونانية**، ص 44.
2– المرجع نفسه: ص 45.
3 – جيد، أندريه: **أوديب وثيسيوس، من أبطال الأساطير اليونانية**، ص 47.
4 – المرجع نفسه. ص 49.

ثانياً: فقء العين الأوديبية بوصفه تحطيماً لبنية الخيالي:

(بسبب ضياع الموضوع (أ– ألف)، المتمثِّل بحبل المشيمة، انفصل الطفل عن حقل الواقعي. وبعد أنْ كان يشعرُ بالاتحاد والتضامِ داخل الرحم، تشرعُ وحدته الآن بالتفكك)[1]، فيصير جسداً مُمَزَّقاً. وهنا يجد الطفلُ نفسه في الموقف المرآوي، أمام الآخر، داخل ما يسميه لاكان حقل الخيالي.

والتخيلي ليس ما يُتخيل، بل هو نظام يتأسس في المرحلة المرآوية، (التي هي بمنزلة موقف نفسي، يواجه الطفل ما بين الشهرين السادس والثامن عشر. حيث تتخلق الأنا عبر توحد الطفل بصورته المنعكسة على المرآة)[2]. أي إنّ الطفل يُنشئ وحدة خيالية بين كينونته الواقعة خارج المرآة، والطيف المنعكس.

فالطفل الذي لا يزال عند لحظة التوحد يتعثر بخطاه، (يرى في صورته المرآوية ثباتاً وكمالاً، يتناقض وقصوره الجسدي. فهو لما يمتلك بعد القدرة على أن يسيطر على جسده، لكن الطفل ينطوي على نظام بصري، يكاد يكون مكتملاً. وهذا التباين يضع الطفل في مقارنة حتمية، بين ما يعايشه من تقطع وتجزؤ على مستوى الجسد، وما يراه من كمال في صورته المرآوية. ما يدفعه للاندماج في الصورة الخارجية، بُغية تجاوز النقص)[3].

من هنا تتسم الأنا بكونها مركباً مختلطاً، فهي قد نتجت عن التوحد بين ما هو ذاتي، وما هو أخروي. "والأنا انغمست في المتخيل منذ نشوئها"[4]؛ وهذا يعني أنها من طبيعة خيالية. فالمادة المرآوية المنظورة لا يمكن أن تكون مساوية للكينونة الناظرة. ولذلك فإنّ معرفتنا أنفسنا تعدُّ تصورية، وليست حقيقية. فوعي الأنا بصورتها مؤسس على الانحراف المعرفي، حيث يرى لاكان[5] أنه جزء لا يتجزأ من بنيتها وطبيعتها. وهذا الانحراف تُجبَرُ عليه الذات، إذ لا سبيل إلى معاينة الجسد إلا عبر وسيط مرآوي.

ومع كل هذا الوهم تبقى المرحلة المرآوية ذات أهمية في التكوين النفسي، (من كونها مَعْقِدَ الأنا، والعتبة التي يعبرها الطفل إلى ما سوف يكون عليه. فالطور المرآوي، يُمثِّل بداية شعور الأنا بهويتها الرمزية، حين تتعرف على نفسها أول مرة في المرآة)[6].

إنَّ حاجة الطفل إلى الصورة ضرورية، ذلك أنه يستحيل علينا لحظ كينونتنا، من دون وسيط مرآوي، نرى بوساطته انعكاس ذواتنا. ولكنَّه يبقى وسيطاً غير محايد. فالطيف المرآوي لا يعادل ذواتنا بحال من الأحوال.

وإذا كانت مأساة أوديب قد تأسست على خطأ لغوي، يتمثَّلُ في هُوِيته الفاسدة، فإنَّ التخييلات القادمة من الخيالي، ستكون بمنزلة القناع، الذي يتسبب بضلاله، ويمنعه من رؤية موقعه الذاتي الحقيقي في النظام الرمزي، كما هو في الواقع. فلماذا فقأ أوديب عينيه؟.

لقد رفضَ لايوس ملك طيبة الاعتراف بطفله الوليد، فجرى تعريف الذات على يد أب رمزي أجنبي، وحين عرف أوديب أن هُوِيَتهُ مزيفة، أدرك أنه بلا معنى. إذ إنّ الدخول في الرمزي لا يكون إلا بوساطة بوابة شرعية تتمثل في التسمية، التي يضطلع بها الأب الرمزي الحقيقي. ما يسمح للذات بالعبور إلى النسق، وحيازة معناها الاجتماعي. لكنّ، نَسْبَ الطفل إلى ملك كورنت، جعل نسق المحارم يتحدد على نحو لا يطابق الواقع.

فصارت زوجة ملك بوليب مُحَرَمةً على أوديب، بعدما شغلت موقع الأم، في حين إنَّ أمه الحقيقية جوكاستا، تعينت له، بوصفها إمرأة عادية. ومن هنا كانت إشكالية أوديب متصلةً بالهُوِيَةِ في المقام الأول؛ فهو ضحية عدم تأسيسه في نسق الذوات على نحو صحيح. وفي ظل غياب الرمزي، سيطر النظام الخيالي المتوَهَّم على الذات.

---

1 – جويل دور: **المنهج الإكلينيكي عند لاكان**، ص166.

2 – سلدن، رامان: **النظرية الأدبية المعاصرة**، ص131. (في الهامش).

3– السيد إبراهيم: **المتخيل الثقافي ونظرية التحليل النفسي المعاصر**. ص33–34. إيفانز، ديلان: **قاموس لاكان التمهيدي في التحليل النفسي**، ص 255.

4– المرجع نفسه: ص13.

5– انظر: الرويلي، ميجان، والبازعي، سعد: **دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً**، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2002م، ص44–55.

6 –كريزويل، إديث: **آفاق العصر عصر البنيوية**، ترجمة: جابر عصفور، ط1، دار سعاد الصباح، الكويت، 1993م، ص218. كليمان، كاترين: **التحليل النفسي**، ص26.

هذا الانحراف المعرفي الذي تسبب به الحقل المرآوي الخيالي، هو ما جعل أوديب يخطئ في تفسير نبوءة الآلهة، إذ إنه حين علم أنه سيقتل أباه، ويتزوج بأمه؛ ماذا فعل؟. لقد فرَّ من بوليب وزوجته، وسار في اتجاه خاطئ، إلى حيث لايوس، والده الحقيقي. فقتله، وورث عرشه وزوجته، بعدما هزم أبا الهول. ولأنّ الرمزي يفضُّ الخيالي حال حضوره، انهارت كل أوهام أوديب دفعة واحدة، حالما عرَف أمر هُوِيَّتَهُ الأصلية؛ فهو ليس ابن لايوس المقتول!، بل هو القاتل أيضاً.

ولأنّ النظرة المرآوية التي تؤسس النظام الخيالي، هي ما تَسبب بتحريف حقيقة المواقع الرمزية عند أوديب، كان منطقياً، (أن يندفع صوب معطف جوكاستا منتزعاً منه مشابكه الذهبية، ليدفع بها في عينيه بقوة، فإذا الدم والصديد يتفجران منهما)[1]. وهذه العقوبة يمكن قراءتها بوصفها موجهة إلى النظرة المرآوية التي تؤسس التزييف داخل حقل الخيال. وعليه يكون أوديب قد فقأ العين المرآوية، بوصفها مصدر الضلال: " لقد عاقبت عيني اللتين لم تضيئا لي الطريق"[2].

لقد تأول سوفوكليس إقدام بطله على فقء عينيه، بتحاشيه مواجهة أبيه المقتول في العالم الآخر، وبالمقابل ذهب بعض الباحثين[3]إلى أنّ مسألة العمى قد تكون مجازية، للإشارة إلى مجتمع لا يحب النور والحقيقة، وبهذا يكون أوديب نفسه ضحية لذلك المجتمع. وهي أراء معتبرة، واختلافات التأويل تبقي نتيجة طبيعية لاختلاف الأدوات المنهجية، التي يستند إليها الباحثون.

ولما كان الخيالي موطنَ الأنا، يكون أوديب قد فقأ أناه أيضاً، وأسدل ستاراً على صورته النرجسية. وهنا سينكفئ المجرم البريء نحو عالمه الداخلي، ليبصر الحقيقة كما

يجب أن تكون: "أجل في الوقت الذي يحجبُ فيه العالم الخارجي عن عيني تتاح لضميري نظرة جديدة إلى عالم داخلي كان العالم الخارجي يشغلني عنه ويحملني على ازدرائه"[4]. فالحقيقة محلها في الداخل، من كون الناظر يعاينها من دون وسيط مرآوي.

ويقول أوديب مخاطباً تريسياس، وقد صار أعمى مثله:" أهذا الذي كنت تريده يا تريسياس، كنت تحسدني على ضوئي، فأردت أن تجرني إلى ظلمتك، إني مثلك أشاهد الظلمة الإلهية."[5].

إن الظلمة الإلهية هنا تشير إلى حقل الواقعي، إلى اليقين الصادق، إلى حيث البصيرة تكون أحدّ من البصر. وهذا يعني أنّ العمى متفوق على البصر، من كونه يقوم بتحييد الأنا المرآوية، ويمنع التزييف الحاصل ضمن حقل الخيالي. ومن الآن ستطَرد كلمات أوديب المعبرة عن إدراكه لأوهام الخيالي؛ حيث يقول: "لقد كنت أظن نفسي فطناً أيام الشباب، يُخَيَّلُ إليَّ أني لم آخذ في النظر الصادق الصحيح، إلّا منذ فقأت عيني بيدي، وحلتُ بينهما وبين الضوء."[6]

لقد كانت سيطرة الخيالي أشبه بالقناع، الذي يحجب الحقيقة، ويعكس صورة مرآوية، هي على النقيض من الواقع. (وقد رفض أوديب محاولة جوكاستا منعه من تمزيق القناع الخيالي، لئلا يعرف الحقيقة)[7]. ولكن هذه الحقيقة لم تلبث أن ظهرت، فسقط القناع عن فضيحة مدوية،" أيها التعس أوديب! ما حاجتك إلى المعرفة؟ لقد عملت ما استطعت لأمنعك من تمزيق القناع الذي كان يحمي سعادتنا."[8]. فمفردة القناع تشير إلى الصورة المرآوية؛ إذ الخيالي كان يطمس حقيقة التعريف الحقيقي لجوكاستا، بوصفها أمّاً لا زوجة. أما كلمة المعرفة فتحيل على حقل اللغة الرمزي.

---

1 – جيد، أندريه: **أوديب وثيسيوس، من أبطال الأساطير اليونانية** ص60–61.

2 – المرجع نفسه، ص 62.

3 – انظر: أبو عسلي، برهان: **أوديب ملكاً لسوفوكليس، قراءة جديدة**، ص65،58. وقارنه مثلاً برأي توفيق الحكيم، الذي رأى أن أوديب فقأ عينيه حزناً على انتحار جوكاستا. طرابيشي،

4 – جيد، أندريه: **أوديب وثيسيوس، من أبطال الأساطير اليونانية**، ص 120.

5 – المرجع نفسه: ص61.

6 – المرجع نفسه: ص120.

7 – أبو عسلي، برهان: **أوديب ملكاً لسوفوكليس، قراءة جديدة**، ص63.

8 – جيد، أندريه: **أوديب وثيسيوس، من أبطال الأساطير اليونانية** ، ص 59.

إنَّ حضور الرمزي لم يقتصر على تحطيم الوهم المرآوي فقط، بل حطم –أيضاً– نرجسية الأنا عند جوكاستا. فالأنا الساعية إلى الكمال في نظر الآخرين، انفضحت الآن وأضحت عارية من كل قناع يسترها، تقول جوكاستا:

" أنا ذي عارية بشعة، كيف أستطيع أن أظهر أمام عينيك، أمام أعين أبنائنا، أمام أعين الشعب"[1]. إنّ جوكاستا تعاني أشد الألم من سقوط صورتها النرجسية، أمام الآخرين، وهذا الألم هو ما دفع بها نحو عتبة الانتحار، هرباً من المواجهة مع المجتمع. ولكن، لماذا لم نرَ مثل هذا الألم عند زوجها.أليس بنرجسيّ؟.

إنّ مصدر نرجسية أوديب مؤسس على نجاحاته البطولية، فكيف لا يزهو بنفسه، ويعجب بذاته، وهو الذي قتل أبا الهول، وفتك بملك طيبة، فورث الملك بقوة ساعديه: "أنا أوديب، قد عَمَّرتُ اربعين سنة، وملكت عشرين عاما، وبلغت بقوة ذراعي قمة السعادة"[2]. لكن مع كلّ هذا الزهو والنرجسية، لم يكن له أنْ يتألم كما تألمت جوكاستا، فهو قد قتل الأنا المتوهمة، التي هي محط النرجسية، حالما فقأ عينيه.

مما سبق نرى أنّ هذا البحث مستنداً إلى منهج لاكان، قدّم تأويلاً جديداً لنوع العقوبة التي اختارها أوديب لنفسه. ظهر بوساطته أنَّ فقء العين، يتوجَهُ إلى هدم بنية النظام الخيالي المرآوي، الذي زيَّف له حقيقة موقعه الرمزي. فالتضليل البصري الخيالي، الذي منح أوديب معرفة تصورية منحرفه عن حقيقة معناه، هو ما جعله يخطئ طريق الهروب من النبوءة. إذ إنه حين هرب من بوليب، كان يسير صوب لايوس.

وإذا كانت الدراسات السابقة قد مثّلت لمسألة كسر نسق المحارم بأنموذج أوديب وجوكاستا، فإنّ هذا البحث لحظَ تَهَدُّمَ قانون الحظر على مستوى القرابة عند أبناء أوديب، فبولينيس يرغب بأنتيجون، وإتيكوكل يرغب بإسمين. وهذا طبيعي ما دام موقع الأب الرمزي شاغراً.

لقد توضَحَ أنّ إشكالية أوديب هي إشكالية لغوية في المقام الأول، فمأساته إنما بدأت من لحظة عزوف الأب الحقيقي عن تسميته، والاعتراف بكينونته، وإعرابها ضمن نسق رمزي يمنحها معناها الحقيقي، بوساطة تحديد موقعها من باقي العناصر. فحدث أن اضطلع بالمهمة رجل آخر، فأعطى الطفل هُوِيَّةً مزيفة، ومن ثم معنى مغايراً للحقيقة، فأضحت تلك الهوية الخاطئة، عاجزة عن لحظ شبكة القرابة كما هي في الواقع. ومن ثمَّ شغل الابن والأم مواقعَ لا تمنع التماس والاقتران. وعليه، إشكالية أوديب تتمثَلُ في كونها خطأُ هُوِيَّةٍ، وخطأ لايوس في المقام الأول.

إنَّ المسافة الفاصلة بين المنظور اللاكاني ونظيره الفرويدي، هي عينها المسافة الفاصلة بين اللغة والجسد، وشتانَ بين تأويل لغوي يليق بالإنسانية، وغرائزية لا تلحظُ في الإنسان سوى كينونته البيولوجية. ولعله قد آن الأوان كي يفطن الباحثون إلى نجاعة اللاكانية، التي جعلت من التحليل النفسي بدعة العصر، وطريقة للعيش على نحو أفضل، بعدما كان سُبَّةً أيامَ فرويد.

1 – جيد، أندريه: **أوديب وثيسيوس، من أبطال الأساطير اليونانية**، ص 59.

2 – المرجع نفسه: ص31.

المصادر والمراجع:

1. (مصدر)، جيد، أندريه: أوديب وثيسيوس، من أبطال الأساطير اليونانية. ترجمة: طه حسين. د.ط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة. 2012م.
2. إبراهيم، السيّد: المتخيل الثقافي ونظرية التحليل النفسي المعاصر، ط1، مركزالحضارة العربية، مصر، 2005م.
3. أبو عسلي، برهان: أوديب ملكاً لسوفوكليس، قراءة جديدة، مجلة جامعة دمشق للعلوم والآداب الإنسانية، المجلد 30، العدد 1-2، 2014.
4. الرويلي، ميجان. والبازعي، سعد: دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً. ط3 المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء، 2002م.
5. إيفانز، ديلان: قاموس لاكان التمهيدي في التحليل النفسي، ترجمة: محمد أحمد محمود خطاب، ط1، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 2018م.
6. بريتون، سيليا: مِن الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، ترجمة: جمال الجزيري، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2006م.
7. حبّ الله، عدنان: التحليل النفسي للرجولة والأنوثة.. من فرويد إلى لاكان، ط1، دارالفارابي، بيروت. 2004.
8. دور، جويل: المنهج الإكلينيكي عند لاكان. ترجمة: محمد أحمد محمد خطّاب، مروة فتحي محمد سلامة، ط1 ،مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 2015م.
9. سلدن، رامان: النظرية الأدبية المعاصرة. ترجمة: جابر عصفور. دار قباء، القاهرة. (د.ط)، 1998م.
10. سوسور، فرديناند: علم اللغة العام. ترجمة يوئيل يوسف عزيز، مراجعة مالك يوسف المطلبي،(د.ط)، دار آفاق عربية، بغداد، 1985م. 132.
11. عزام، محمد: تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة، دراسة في نقد النقد. د.ط. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003م.
12. عسكر، عبدالله: مدخل إلى التحليل النفسي اللاكاني، ط1، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 2001م.
13. كريزويل، إديث: آفاق العصر عصر البنيوية. ترجمة: جابر عصفور. ط1، دار سعاد الصباح، الكويت، 1993م.
14. كليمان، كاترين: التحليل النفسي. ترجمة: محمد سبيلا، وحسن أحجيج، د. ط، مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء، 2004م.